الأدب الإسلامي بين الندوي وباكثير

د. عبد الحكيم الزبيدي

بحث تم تقديمه في:

المؤتمر العالمي حول "موقف الشيخ الندوي من الأفكار المعاصرة (دراسة مقارنة)"

في المدة 22-24 من فبراير 2014م

في رحاب مدرسة العلوم الإسلامية في عليكره

الملحقة بجامعة ندوة العلماء في لكناو، الهند

الأدب الإسلامي بين الندوي وباكثير

يرى الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا وهو من منظري الأدب الإسلامي أن العلامة أبا الحسن الندوي هو أول من دعا إلى إقامة مذهب إسلامي في الأدب، في بحثه الذي قدمه حين اختير عضواً في المجمع العلمي في دمشق[1].

والحق أن العلامة الندوي رحمه الله، لم يقدم في بحثه المشار إليه تعريفاً صريحاً للأدب الإسلامي، ولكنه لفت نظر الباحثين إلى أن مصادر الأدب ليست فقط هي كتب الأدب، بل إن في كتب التفسير والحديث والتاريخ أدباً رفيعاً ينبغي الالتفات إليه، وتقديمه للناشئة باعتباره أدباً بدلاً من ذلك الغثاء الذي رانت عليه الصنعة وفقد أهم ما يميز الأدب من التدفق والحيوية والاتصال بالحياة.

ويمكننا من خلال قراءة ناقدة لذلك البحث أن نخرج بمفهوم الأدب الإسلامي لدى العلامة الندوي–وإن كان لم يطلق عليه تلك الصفة. وكنت من خلال اهتمامي بأدب الأديب الراحل علي أحمد باكثير قد لاحظت أن الأفكار التي دعا إليها العلامة الندوي تكاد تنطبق على أدب باكثير، ويكاد مفهوم الأدب الإسلامي عند الندوي يتطابق مع مفهومه لدى باكثير، مع التأكيد على أن كلا من العلامة الندوي والأديب باكثير لم يطلق صفة الإسلامية على الأدب، ولهذا دلالة سنشير إليها في موضعها من هذا البحث إن شاء الله.

ملخص لبحث العلامة الندوي

يحسن بنا في البدء أن نقدم ملخصاً لبحث العلامة الندوي الذي كتبه سنة 1957م حين اختير عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق، وكان البحث تحت عنوان: "(نظرة جديدة إلى التراث الأدبي العربي)[2].

يقسم العلامة الندوي الأدب إلى قسمين: الأدب الصناعي التقليدي والأدب الطبيعي. ويرى الندوي أن الأدب العربي أصيب بمحنة لا يخلو من الإصابة بها أدب أمة من الأمم، وإن كان طولها يختلف من أمة لأخرى، هذه المحنة هي[1]:

---

[1]- الباشا، عبد الرحمن رأفت: نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، دار الأدب الإسلامي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 5، 1425هـ/2004م، ص 112

[2]- الندوي، أبو الحسن علي الحسني: نظرات في الأدب، دار القلم، دمشق، 1408هـ/1988م، ص 21، والندوي، أبو الحسن علي الحسني: مختارات من أدب العرب، قسم النثر، الجزء الأول، دار الشروق، جدة، ط 3، 1406هـ/1986م، المقدمة ص 7، والغوري، سيد عبد الماجد: العلامة أبو الحسن الندوي رائداً للأدب الإسلامي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1430هـ/2009م، ص 57

"تسلط أصحاب التصنع والتكلف على الأدب، الذين يتخذونه حرفة وصناعة، ويتنافسون في تنميقه وتحبيره، ليثبتوا براعتهم وتفوقهم، وليصلوا به إلى أغراض شخصية محضة".

ويرى الندوي أن استفحال هذه المحنة يكون[2]:

"حين يصبح الأدب مقصوراً على هذه الطائفة، مختصاً بهم، ويأتي على الناس زمان لا يفهمون فيه من كلمة (الأدب) إلا ما أثر عن هذه الطبقة من كلام مصنوع وأدب تقليدي لا قوة فيه ولا روح ولا جدّة ولا متعة".

وقد يطغى هذا الأدب على النوع الثاني الذي يسميه الندوي (الأدب الطبيعي)، ويصفه بأنه[3]:

"كلام مرسل، وتعبير بليغ يحرّك النفوس، ويثير الإعجاب، ويوسع آفاق الفكر، ويغري بالتقليد، ويبعث في النفس الثقة".

وهذا الأدب الطبيعي غير موجود في كتب الأدب ولم يكتبه أدباء ولم يأت في سياق أدبي، وإنما جاء في بحث ديني أوكتاب علمي أو موضوع فلسفي أو اجتماعي.

وبذلك نفهم أن الأدب الطبيعي –كما يسميه الندوي– هو الأدب الذي لا تكلف فيه، ولا تصنع، ولا يكتب بهدف الإبهار الأدبي، والتزويق اللفظي، وإنما يأتي عفو الخاطر. ويصرح الندوي في موضع آخر من بحثه بخصائص هذا الأدب الطبيعي، فيقول[4]:

"إن ما كتبه هؤلاء العلماء غير معتقدين أنهم يكتبون للأدب، ولا زاعمين أنهم في مكانة عالية من الإنشاء، هو الذي يسعد العربية ويشرفها أكثر مما يسعدها ويشرفها كتابات الأدباء ورسائلهم وموضوعاتهم الأدبية، وأخاف لو أنهم قصدوا الأدب وتكلفوا الإنشاء؛ لفسدت كتاباتهم".

ويضرب بعض الأمثلة على تباين أسلوب الكاتب الواحد حين يكتب للأدب وحين يكتب في موضوع علمي، ويمثل لذلك بالزمخشري الذي بدا متكلفاً مقلداً في كتابه (أطواق الذهب) وكاتباً بليغاً في مقدمة (المفصّل) ومواضع من تفسيره (الكشاف)، وابن الجوزي الذي كان –حسب رأي الندوي– غير موفق في كتابه (المدهش) وكاتباً مترسلاً بليغاً في كتابه (صيد الخاطر)[5].

ويرى الندوي أن سبب لجوء هؤلاء الكتاب الذين ذكرهم لهذا الأسلوب هو أن عصرهم كان يعد الأدب في التكلف والتصنع، فسلكوا سبيل أدباء عصرهم، ولكن تلك المؤلفات الأدبية لم يكتب لها البقاء، بينما بقيت كتبهم التي ألفوها وليس في نيتهم أن يبدعوا أدباً بل تركوا أنفسهم على سجيتها

---

[1]- الندوي، أبو الحسن علي الحسني: نظرات في الأدب، مرجع سابق، ص 21
[2]- المرجع السابق، نفسها
[3]- المرجع السابق، ص 22
[4]- المرجع السابق، ص 31
[5]- المرجع السابق، نفسها

وكتبوا في مواضيع علمية آمنوا بها وتحمسوا لها فبقيت كتبهم تلك مثل (صيد الخاطر) و(المفصل) و(الكشاف)، يتلقفها الناس عصراً بعد عصر.

ومن هذا نفهم أن تعريف الأدب الطبيعي عند الندوي هو أن يكون نابعاً من عاطفة صادقة، بعيداً عن التكلف والتصنع. يقول الندوي[1]:

"ليس السِّرُّ في فضل هذه الكتابات العلمية والدينية وتأثيرها وقوتها وجمالها هو التحرر من السجع والبديع وترّسلها فحسب؛ بل السبب الأكبر هو أن هذه الكتابات قد كتبت عن عقيدة وعاطفة، وعن فكرة واقتناع وعن حماسة وعزم. أما الكتابات الأدبية فقد كان غالبها يكتب بالاقتراح من ملك أو وزير أو صديق، أو لإرضاء شهوة الأدب أو تحقيق رغبة المجتمع، أو حباً للظهور والتفوق، وهذه كلها دوافع سطحية لا تمنح الكتابة القوة والروح، ولا تسبغ عليها لباس البقاء والخلود، ولا تعطيها التأثير في النفوس والقلوب، والفرق بينها وبين الكتابات المنبعثة من القلب والعقيدة كالفرق بين الصورة والإنسان، وكالفرق بين النائحة والثكلى".

ويؤكد الندوي على أهمية العقيدة في الأدب فيقول[2]:

"وقد كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة أو يكتبون لأنفسهم يكتبون إجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم مندفعين منبعثين فتشتعل مواهبهم ويفيض خاطرهم ويتحرق قلبهم فتنثال عليهم المعاني وتطاوعهم الألفاظ وتؤثر كتاباتهم في نفوس قرائها لأنها خرجت من قلب فلا تستقر إلا في قلب".

ويوازن بينهم وبين الفريق الثاني فريق المتكلفين أصحاب الصناعة فيقول[3]:

"أما هؤلاء المتصنعون فإنهم في كتاباتهم الأدبية أشبه بالممثلين، قد يمثلون الملوك، فيتصنعون أبهة الملك ومظاهره وقد يمثلون الصعلوك فيتظاهرون بالفقر، وقد يمثلون السعيد والشقي من غير أن يذوقوا لذة السعادة، أو يكتووا بنار الشقاء، وقد يعزون من غير أن يشاركوا المفجوع في أحزانه وقد يهنئون من غير أن يشاركوا السعيد في أفراحه".

ويضرب الأمثلة على الأدب الطبيعي بكتابات الإمام الغزالي في (الإحياء) و(المنقذ من الضلال)، وكتابات ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، التي يصفها بقوله: "تَرَ مثالاً رائعاً للكتابة الأدبية العالية يتدفق قوة وحياة وتأثيراً، وذلك هو الأدب الحي الخليق بالبقاء، ولا سبب لذلك إلا أنه قد كتب عن عقيدة وعاطفة"[4].

---

[1]- المرجع السابق، ص 31-32
[2]- المرجع السابق، ص 32
[3]- المرجع السابق، نفسها
[4]- المرجع السابق، ص 33

ويضيف الندوي سبباً آخر لروعة الإبداع في الأدب الطبيعي بالإضافة إلى صدق العاطفة وقوة العقيدة، ذلك هو[1]:

"الإيمان، وصفاء النفس، والاشتغال بالله، والعزوف عن الشهوات [الذي] يمنح صاحبه صفاء حسناً، ولطافة نفس، وعذوبة روح، ونفوذاً إلى المعاني الدقيقة واقتداراً على التعبير البليغ".

ويدلل على ذلك بقوله[2]:

"لذلك كان من الأدب الصوفي ومن كلام الصالحين العارفين قطع أدبية خالدة لم تفقد جمالها وقوتها على مر العصور والأجيال".

إذا فإن مفهوم الأدب الطبيعي عند الندوي ليس في محتواه بل في الباعث عليه، فليس الأدب هو الإسلامي ولكن النَّفس التي يصدر عنها هي المؤمنة المتدينة فكل ما يصدر عنها يكون جميلاً ورائعاً ومؤثراً أيا كان موضوعه، وموضوعه –والأمر كذلك– لن يكون فيه ما يتعارض مع الإسلام والإيمان لأنه صادر عن نفس مؤمنة وعقيدة صادقة.

ويرى الندوي أن هذه القطع الأدبية الموجودة في ثنايا الكتب غير الأدبية[3]:

"هي التي تخدم اللغة والأدب أكثر مما تخدمها كتب اللغة والأدب، وهي التي تفتق القريحة، وتنشط الذهن، وتقوي الذوق السليم، وتعلم الكتابة الحقيقية".

وكأنه بذلك يوصي بتدريس تلك القطع الأدبية لطلاب الأدب لتنشأ عندهم ملكة أدبية طبيعية، ينسجوا على منوالها، بدلاً من تنشئتهم على كتب الأدب المصنوع المتكلف.

ويخلص الندوي إلى تعريف الأدب الطبيعي بأنه[4]:

"تعبير عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب مُفهم مؤثر لا غير".

وإذا عددنا هذا البحث للعلامة الندوي هو الدعوة الأولى لإقامة مذهب إسلامي في الأدب –كما يرى الدكتور الباشا– فإن مفهوم هذا الأدب –الذي أطلق عليه العلامة الندوي الأدب الطبيعي– ليس متطابقاً تماماً مع مفهوم الأدب الإسلامي الذي يُعرَّف اليوم بأنه: "**التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق التصور الإسلامي**"[5]. فالعلامة الندوي يركز على تلقائية هذا الأدب وصدوره عن عقيدة وإيمان، وأن لا يكون تقليداً متكلفاً خالياً من الحياة، دون أن يتطرق

---

[1]- المرجع السابق، ص 33
[2]- المرجع السابق، ص 33
[3]- المرجع السابق، ص 34
[4]- المرجع السابق، ص 35
[5]- موقع رابطة الأدب الإسلامي العالمية: http://www.adabislami.org

إلى محتواه ومدى مطابقته للتصور الإسلامي، وإن كان هذا الأمر يُفهم ضمنياً من خلال الأمثلة التي أوردها. أما تعريف الأدب الإسلامي اليوم فيركز على الهدف والغاية والتوافق مع التصور الإسلامي، وإن كان قد أشار إلى الفنية، ولكنه لم يركز عليها.

باكثير والأدب الإسلامي

ولد علي أحمد باكثير في إندونيسيا عام 1910م، لأسرة عربية من حضرموت (اليمن). وحين بلغ العاشرة من عمره سافر به أبوه إلى حضرموت لينشأ هناك نشأة عربية إسلامية، فدرس اللغة والنحو والأدب على أيدي أساتذة أجلاء، ولم يبلغ العشرين من عمره إلا وقد أحاط بكل كتب الأدب القديم، وكتب التفسير والحديث والسيرة، وتمكن من علمي النحو والعروض. يظهر ذلك واضحاً من خلال ثقافته التي انعكست في أعماله الأدبية، وكتاباته النقدية المبكرة. فقد كتب استدراكاً على كتاب (الموازنة للآمدي)[1] ناقش فيه كثيراً من تحامله على أبي تمام ورد عليه، وهو لم يبلغ العشرين من عمره بعد. كما كتب مقالاً بعنوان (ملاحظات سائح في ديوان ابن زيدون)[2] صحح فيه كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها محققا ديوان ابن زيدون، مما يدل على سعة اطلاعه على كتب الأدب وتضلعه منها. كما كتب قصيدة عن الإمام الغزالي تدل على أنه اطلع على مؤلفاته واستوعبها[3].

وبعبارة أخرى فإن باكثير كان قد اطلع قبل أن يغادر حضرموت وهو في العشرين من عمره على كلا الأدبين: المصنوع والطبيعي، حسب تعريف العلامة الندوي.

ولأن باكثير كغيره من شُداة الأدب كان يعد الأدب المصنوع –حسب تعريف الندوي– هو الأدب الحقيقي، ولأنه كان يهيئ نفسه ليكون شاعراً وأديباً، فلا غرو أن يقلد ذلك الأدب المصنوع، فيأتي كثير من شعره ونثره في تلك المدة غارقاً في التقليد، مصنوعاً لا أثر فيه للحياة ولا للتدفق. ولنضرب مثلين للتدليل على ذلك، أحدهما من شعره والآخر من نثره.

أما شعره فاخترنا منه هذه القصيدة التي كتبها قبل أن يغادر حضرموت عام 1932م، وفيها يقف على الأطلال، ويحاكي الشعر الجاهلي، يقول فيها[4]:

لمـــن طلـــلٌ تحاكيـــه الوشـــومُ عفـــت منـــه المعـــالمُ والرُّســـومُ
يحـاكي مُصـحفاً مـن عهـد عـادٍ بخـــط الحميـــريِّ لـــه رقـــومُ

[1]- نشره في مجلة (التهذيب) التي كان يصدرها مع نخبة من أدباء سيئون بين عامي 1349هـ و1350هـ
[2]- كتبه أثناء إقامته في عدن، ونشرته مجلة (المعرفة) المصرية في عدد ديسمبر 1932م
[3]- باكثير، علي أحمد: ديوان أزهار الربى في شعر الصبا، تحقيق وتقديم: محمد أبوبكر حميد، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، بيروت، 1408هـ/1987م، ص ص 229-232
[4]- المرجع السابق، ص ص 141-142

تَرحَّــلَ عنـــه أحبــابي جميعـــاً وخلَّــــوني تســــاورني الهُمــــومُ
وخلَّـــوني هنـــاك رهـــينَ سُـــقمٍ تُســـاهرني الكواكـــبُ والنُّجـــومُ
ووادٍ مثــلَ جــوفِ العِيــرِ صَــفرٍ فريــــتُ وليلُــــه ليــــلٌ بهــــيمُ
فريـــتُ هجولَـــه والليــلُ مُــرخٍ دُجــاه وقــد تجــاوبَ فيــه بُــومُ
إلى آخرها.

فمن يقرأ هذه القصيدة لا يصدق أن ناظمها يعيش في القرن الرابع عشر الهجري، ويحسبه شاعراً من شعراء الجاهلية، يقف على الأطلال ويفخر بنفسه وبقومه. والقصيدة كما نرى خير مثال على ما أطلق عليه العلامة الندوي (الأدب التقليدي المصنوع)، الذي يكتبه منشؤه عن غير معاناة، ولا عقيدة صادقة، وإنما ليثبت براعته وتمكنه من كتابة الشعر في الأغراض المختلفة.

على أن المثال الذي اخترناه لأسلوبه النثري، يأتي أسوأ من أسلوبه المنظوم، ذلك أنه كتبه بناء على اقتراح من صديق. فقد ألف صديق لباكثير –هو في الحقيقة أستاذ باكثير في الخط– ألف كتاباً عن مناقب قبيلته (آل بافضل)، وطلب من صديقه وتلميذه النجيب باكثير أن يكتب تقريظاً له، فكتب يقول[1]:

"الحمد لله الذي أورد من شاء مناهل العلوم، وأتحف من أراد بثاقبات الفهوم. أحمده على نعمه، وأشكره على قسمه. وأصلي وأسلم على النبي المعظم، والرسول المكرم، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.
أما بعد، فقد اطلعت على كتاب (صلة الأهل، بتدوين ما تفرق من مناقب بني فضل) للعالم العلّامة، الحَبرِ الفهّامة، العلمِ الشهير، والبحرِ الغزير، المحققِ المدقق، والغيثِ المغدق، فريدِ عصره، ووحيدِ دهره، سحبانَ[2] بلاغةٍ وخطابة، وابنِ مُقلة[3] خطاً وكتابة، جامعِ أشتات الفضل، الشيخِ محمدِ بن عوض بافضل، لا زال رافلاً في حلل السلامة والعافية. فسرّحتُ النظر في أزهار رياضه، وأجلتُ الطرف في أشجار غياضه، وتنزهتُ في حدائقه البهيّة، وتفكهتُ بفواكهه الجنيّة، فوجدته يقطر بلاغة، ويندى صياغة، يُدّخر لنفاسته، ويُشرب لسلاسته:

تزينُ معانيه ألفاظَه وألفاظُه زائناتُ المعاني

كتاب يُزري بعقد الثُّريّا، ويُخجل زهرَ الروضِ الباسمَ المُحيّا، كتاب أغلى من السَّلامة من المصائب، وأحلى من رسائل القاضي الفاضل[4] والصاحب[5]. كتاب كسته بهجة الحسن رونقاً هو السِّحر، لا بل جلَّ قدراً عن السِّحر. كتاب يهزأ بالعقود اللؤلؤية[6]، ويفوق على الصِّحاح الجوهرية[7]. هو السِّحر

1- بافضل، محمد بن عوض: صلة الأهل، بتدوين ما تفرق من مناقب بني فضل، د. ن، 1420هـ/ 1999
2- خطيب مخضرم من وائل يضرب به المثل في البلاغة (ت 54 هـ)
3- أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة الشيرازي (ت 328هـ) من أشهر خطاطي العصر العباسي
4- عبد الرحيم بن على بن محمد اللخمي (ت 596هـ) أحد الأئمة الكتّاب، ووزير السلطان صلاح الدين الأيوبي
5- أبو القاسم إسماعيل بن عباد (ت 385 هـ) أحد أعيان العصر البويهي كان من نوادر الوزراء الذين غلب عليهم العلم والأدب
6- العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تأليف: علي بن الحسن الخزرجي (مؤرخ، بحاثة، من أهل زبيد في اليمن، ت 812هـ)
7- تاج اللغة وصحاح العربية، تأليف: إسماعيل بن حماد الجوهري (ت 393هـ)

الحلال، أو الماء الزلال. حريٌّ أن يُكتب بدموع الحور، على صفحات ربّات الخدور. كتاب يُزري بلآلئ البحور، ودراريِّ النُّحور. فهو مُفيد علوم، ومُبيد هموم. لا عيب فيه ولا شين، إلا أنه محتاج إلى ما يقيه من العين:

شخص الأنامُ إلى صنيعك فاستعذْ من شرِّ أعينِهم بعيبٍ واحدِ

فجعلتُ هذا التقريظ له من العين وقاية، ومن شرِّ الحسَّاد حماية:

جعلتُ تقريظي له عُوذةً تقيه من شرِّ أذى العينِ"

هذا هو أدب باكثير قد أن يغادر حضرموت، حين كان مفهوم الأدب عنده هو التقليد والصناعة والسجع والتكلف. وقد كتب هذا التقريظ بناء على اقتراح من صديق، تماماً كما أشار العلامة الندوي إلى أن الأدب المصنوع ليس نابعاً من عاطفة صادقة وإنما يكتبه منشؤه إما بناء على اقتراح من صديق أو لتحقيق مصلحة من المصالح التي أسماها الندوي "المصالح السطحية". ويظهر من هذا التقريظ مدى تأثر باكثير بكتب الأدب المصنوع –كما أسماها الندوي– من أمثال: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمُحبِّي، وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر للبيطار، ومحاضرات الأدباء ومحاورات البلغاء للراغب الأصفهاني، وغيرها، ويطول بنا الحديث لو حاولنا تتبع عبارات باكثير والمصادر التي وردت فيها تلك العبارات، إذ هي كلها مصنوعة ومقلدة وليس منها شيء من تشبيهاته الخاصة وعباراته الخالصة.

ولكن مخزون باكثير من كتب الأدب الطبيعي –كما يسميه الندوي– لم يظهر إلا عندما غادر باكثير حضرموت، وقدم إلى مصر، ودرس الأدب الإنجليزي في الجامعة، واطلع على التجارب الجديدة في الأدب التي كانت تعج بها الساحة المصرية، مثل جماعة أبولو ومجلة الرسالة، فتغيرت نظرته للأدب، وتوقف برهة عن نظم الشعر، ثم عاد إليه بفهم جديد ونظرة جديدة فأبدع ما أصبح يعرف اليوم بالشعر الحر، وأسماه هو (الشعر المرسل المنطلق)، ففتح بذلك للأدب العربي نافذة على الأدب العالمي. ولنوازن قصيدته الطللية تلك، بهذه الأبيات التي كتبها أول قدومه إلى مصر[1]:

أمس

يا حبيبي برد العقدُ ولم يبرد على الرشف صداي
وانقضى أو أوشك الليل ولمَّا أقضِ من فيك مُناي

***

[1]- نشرت في مجلة أبولو، (العدد 4 المجلد 3) ديسمبر 1934م

أه ما أحلاكَ في قلبي وعيني وذراعي ولساني
ليتني أفنى بعينيك فأحيا في نعيمٍ غير فانِ
***

لو عبرنا الدَّهر ضماً واعتناقاً لا أرى يُشفى غليلي
يا حياتي ساعةٌ تعدل منك الدَّهرَ ليست بالقليلِ
***

أنتَ دنياي وديني ومعادي وهداي
ليت شعري عنك يا روحي أنفسي أنت أم أنت سواي؟
***

يا حياة الروح هل صاغكَ ربي من فؤادي وهواه
أم براني الجسدَ الهامدَ مَن أودع لي فيكَ الحياه؟
***

ذاك أو هذا فإنّا مهجةٌ في جسدين
فإذا نحنُ اعتنقنا فمُصلٌّ ضمَّ لله اليدين
***

واليوم

وانطوى العهدُ وأُفردتُ لأشقى عائشاً في نصفِ روحِ
ليته نصفٌ سليمٌ غير ممنيٍّ بأشتاتِ الجروحِ
***

فلأمتْ بعدكَ كي ألقاكَ أو فلأحيَ بالذكرى لحينْ
وعزائي في يقين أنني ألقاكَ في دار اليقينْ

نجد هذه القصيدة تتدفق حيوية، وتنطق بالصدق والمعاناة، مع سلاسة في الألفاظ، وجمال في الأسلوب، دون تقعر أو تكلف.

ولنوازن قطعته النثرية تلك بما فيها من سجع متكلف، وصور مصنوعة، بهذه القطعة من رواية (وا إسلاماه) التي يصف فيها زواج (قطز) و(جلنار)[1]:

[1]- باكثير، علي أحمد: وا إسلاماه، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت، ص ص 206-207

"وانتصف الليل، وانفضت جموع المدعوين والمدعوات، وسكتت أصوات الغناء، وألحان المزاهر والعيدان، وخفتت الطبول، وسكنت حركات الرقص، وتناعست عيون المصابيح، وأخذ الخدم يرفعون الموائد ويطوون الأخونة، وآوت الجواري إلى مخادعهن بين الفرح والحسرة، وأرخيت الستائر على الجناح الميمون، وخلا الحبيبان السعيدان.

فطاب اللقاء وساد الصفاء، وسالت دموع الفرح، وتحدث القلب إلى القلب ولذت الشكوى، ورقت النجوى، وتذوكرت ذنوب الزمان ثم غُفرت له دفعة واحدة. ومرت اللحظات، كأنها حبات عقد من اللؤلؤ النضيد وهى سلكه فانتثر، وقرت بنعيم الوصل عيون طالما أسهدها البين الطويل، فما كانت تنطبق إلا على لوم نافذ، ومضجع قلق، فمشى إليها النعاس مترفقا يستعتبها فأعتبته وضمته في شوق بين أهدابها الساجية. فرقد اثنان الحب ثالثهما تحوطهما بسمات الله ورضوانه. وتحقق حلم في الأرض، وأجيبت دعوة في السماء انطلقت من فم رجل صالح. واطمأنت روحا امرأتين غرقتا في نهر السند، وكانتا كثيرا ما تنظران إليهما صغيرين يلعبان في حديقة القصر الملكي بغزنة فتتمنيان أن تريا مثل هذا اليوم.

حتى تنفس الصبح وبرد السوار، فهب العروسان مذعورين يخشيان أن يكون ما كانا فيه رؤيا في المنام، والتمس أحدهما الآخر في نور الغبش، فإذا هما متعانقان".

هذا هو الأدب الطبيعي الذي تعشقه النفوس وترتاح إليه الأسماع، وهو صادر عن عاطفة صادقة، ذلك أن باكثير، وإن كان يصف هنا عرس قطز وجلنار، فإنه كان في الحقيقة يصف عرسه هو بمحبوبته التي اغتضرتها يد المنون وهي في ميعة الصبا وريعان الشباب، قبل أن تجف رياحين عرسهما. فجاء وصفه يقطر صدقاً ويندى عاطفة.

مفهوم الأدب الإسلامي لدى الندوي وباكثير

أشرنا في مطلع هذا البحث إلى أن بعض منظري الأدب الإسلامي في العصر الحديث يعدون العلامة الندوي أول من دعا إلى إقامة مذهب إسلامي في الأدب، في بحثه الذي أعده عام 1957م حين اختير عضواً في مجمع اللغة العربية في دمشق. وحين استعرضنا البحث المشار إليه رأينا أن العلامة الندوي كان يتحدث عن الأسلوب لا المحتوى. فقد فرق –كما أشرنا– بين نوعين من الأدب، هما: الأدب المصنوع، والأدب الطبيعي. وعنى بالأول الأدب الذي يهتم بالشكل من سجع وتكلف في الصياغة، وعنى بالثاني الذي يصدر فيه الكاتب عن سجية صافية وعقيدة قوية، ونفس مؤمنة فيأتي أسلوبه مشرقاً سلساً تلذه الأسماع وترتاح له النفوس.

فالعلامة الندوي إذن يتحدث عن الأسلوب والشكل لا عن المحتوى، وإن كانت الأمثلة التي أوردها كلها محتواها إسلامي أو لا يتنافى مع الإسلام. بينما يرى منظرو الأدب الإسلامي أن:

"الأدب الإسلامي هو التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق التصور الإسلامي"[1].

فهم إذاً يُعنون بالمحتوى أكثر من الشكل. وهذا في رأيي فرق جوهري بين فهم العلامة الندوي للأدب الإسلامي وبين فهم منظري الأدب الإسلامي المعاصرين. مع التأكيد هنا على أن العلامة الندوي لا يهمل المحتوى، والنماذج التي اختارها في كتابه (مختارات من أدب العرب) تؤكد ذلك، ومع التأكيد أيضاً على أن منظري الأدب الإسلامي لا يهملون الشكل، فالتعبير السابق يحتوي على مصطلح (التعبير الفني) وهو يخص الشكل، ولكني أرى أن العلامة الندوي يُعلي من شأن الشكل، بينما يُعلي منظرو الأدب الإسلامي من شأن المحتوى. وللتدليل على ذلك نشير إلى خصائص الأدب الإسلامي التي تميزه عن الآداب الأخرى من وجهة نظر الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا، فسنجده يورد ستَّ خصائص، خمس منها تتعلق بالمضمون (غائي هادف، ملتزم، أصيل، مستقل، فعال مؤثر) وواحدة فقط تتعلق بالشكل (متكامل)، ويقصد بالتكامل "تآزر المضمون مع الشكل"[2]؛ فحتى هذه امتزجت بالمضمون ولم تخلص للشكل وحده.

وإذا حاولنا أن نستخلص من مقال العلامة الندوي خصائص الأدب الإسلامي –أو الطبيعي كما أسماه– فسنجده يحدده بالصفات الآتية:

كلام مرسل، وتعبير بليغ[3]، يعبر عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب مُفهم مؤثر[4]، كتب عن عقيدة وعاطفة، وعن فكرة واقتناع وعن حماسة وعزم[5]، صادراً عن نفس صافية مؤمنة، مشتغلة بالله، عازفة عن الشهوات[6].

فمن وجهة نظر العلامة الندوي ينبغي أن يكون هذا الأدب بليغاً، مرسلاً، ومؤثراً، صادراً عن عقيدة وعاطفة صادقة، وعن فكرة واقتناع وحماسة وعزم، عن نفس صافية مؤمنة مشتغلة بالله عازفة عن الشهوات. فنجده يمزج بين الشكل والمضمون بحيث يصعب الفصل بينهما، ونراه يركز على العقيدة وصفاء النفس وعزوفها عن الشهوات ليأتي ما يصدر عنها بليغاً مؤثراً شفافاً. فكأنه بذلك يجعل المحتوى نتيجة طبيعية لصفاء النفس وإيمانها، فيأتي المحتوى إسلامياً دون تكلف أو تعمد أو وعي مسبق، أو التزام أو إلزام من الأديب أو من غيره.

---

[1]- موقع رابطة الأدب الإسلامي العالمية: http://www.adabislami.org

[2]- الباشا، عبد الرحمن رأفت: نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، مرجع سابق، ص ص 145-147

[3]- الغوري، سيد عبد الماجد: العلامة أبو الحسن الندوي رائداً للأدب الإسلامي، مرجع سابق، ص 58

[4]- المرجع السابق، ص 81

[5]- المرجع السابق، ص 76

[6]- المرجع السابق، ص 78

وإذا وازنا هذا المفهوم للأدب الإسلامي –أو الطبيعي– لدى العلامة الندوي بمفهوم الأدب الإسلامي لدى الأديب باكثير، فسنجد كثيراً من التشابه الذي يكاد يصل إلى حد التطابق.

ومع أن باكثير لم يكتب في النقد والتنظير لمفهومه للأدب، إلا أن الكتابات القليلة التي كتبها ستلقي ضوءاً كافياً يجلي نظرته للأدب كما يريد له أن يكون. ولدينا كتاب (فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية)، وهو مجموعة محاضرات كان باكثير قد ألقاها على طلبة المعهد العربي، ومحاضرة بعنوان (دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية) كان باكثير قد ألقاها في مؤتمر الكتاب العرب ببغداد عام 1969م ونشرها في مجلة (الآداب) البيروتية، وسنعتمد على هذين المرجعين في تجلية مفهوم الأدب الإسلامي لدى باكثير.

بداية نقرر أن باكثير لم يستخدم مصطلح (الأدب الإسلامي) ولم يدعُ إليه. ولم يكن يدعو إلى أن يكون للكتاب الإسلاميين أو الملتزمين رابطة أو منابر خاصة بهم. وإنما كان شأنه –كشأن العلامة الندوي– أن يدعو كل الكتاب العرب –وضمناً المسلمين– إلى أن ينتهجوا نهجاً معيناً من حيث الشكل والمحتوى، وسنجلي ذلك فيما يأتي.

دعا باكثير في كتابه (فن المسرحية) إلى أن يكون للكاتب فكرة معينة يتحمس لها ويدافع عنها، يقول باكثير، تحت عنوان (الكاتب الداعية)[1]:

> "هل يصلح أن يكون الكاتب المسرحي داعية لفكرة خاصة، وهل يمكن لمثل هذا الكاتب الداعية الذي يستوحي موضوعاته من حماسته المتوقدة لهذه الفكرة أن ينتج مسرحيات تعتبر أعمالاً فنية؟ والجواب على هذا السؤال بالإيجاب (..)، ولكن ينبغي لمثل هذا الكاتب المسرحي ألا ينسى وهو يلتهب حماسة للدعوة التي يدعو إليها أن المسرحية عمل فني قبل كل شيء فيجب ألا يجور على فنيتها بحال من الأحوال. بل ينبغي أن يحرص الحرص كله على سلامة عمله من الوجهة الفنية، وأن يدرك أن ذلك هو السبب الوحيد لجعل الرسالة التي ينطوي عليها بليغة التأثير في الجمهور الذي يشاهده.
> والخلاصة أن على هذا الكاتب أن يجعل الداعية فيه خادماً للفنان المسرحي فيه، لا سيداً له، وإلا فليتخذ أداة أخرى غير الكتابة المسرحية كالخطابة أو الصحافة".

وهذا يلتقي تماماً مع ما قرره العلامة الندوي من أن سر تفوق تلك الكتابات التي أطلق عليها (الأدب الطبيعي) هو أن أصحابها انطلقوا من عقيدة آمنوا بها وتحمسوا لها، ولم تكن مفروضة عليهم من الخارج. مع تأكيد باكثير على الشكل الفني وعدم طغيان الداعية على الفنان.

كما دعا باكثير في محاضرته الأديب العربي –وضمناً الأديب المسلم إلى[2]:

---

[1]- باكثير، علي أحمد: فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، مطبعة مصر، د.ت، ص 36

[2]- باكثير، علي أحمد: دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية، مجلة الآداب، بيروت، العدد (5)، أيار (مايو) 1969، ص 11

"أن يلتزم شرف الكلمة ويراعي ما يجب لها من أمانة وصدق، فلا يتملق الحكام وأرباب المناصب رغبة أو رهبة ولا يداجي الخونة والعملاء والانهزاميين والانتهازيين من أي لون أو اتجاه، إيثاراً للسلامة وتنصلاً من التبعة، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس".

وهذا بالضبط ما حذر منه العلامة الندوي حين أشار إلى أن (الأدب المصنوع) صار كذلك لأنه كتب إما بناء على اقتراح من صديق أو للوصول إلى مصلحة معينة. فباكثير والندوي يدعوان الكتاب إلى أن يصدروا عن عقيدة صادقة ودعوة هم متحمسون لها، وأن لا يتكسبوا بالأدب ويتخذوه حرفة لاستدرار الأموال وجلب المصالح.

ومع اتفاق باكثير مع رأي العلامة الندوي، نجد أن فهمه لدور الأديب العربي يكاد يتطابق مع خصائص الأدب الإسلامي كما قررها الدكتور الباشا. فقد حدد باكثير في محاضرته الأمور التي ينبغي أن يلتزم بها الأديب العربي (أو المسلم)، ليؤدي دوره المنوط به في المعركة المصيرية التي تخوضها أمته. وإذا وازنا بين هذه الأمور وبين الخصائص التي تميز الأدب الإسلامي عن الآداب الأخرى كما حددها الدكتور الباشا، فسنجد الكثير من التشابه الذي قد يصل إلى حد التطابق. وسنشير إلى ذلك من خلال ذكر الخصائص التي أوردها الدكتور الباشا مع ذكر ما يقابلها في محاضرة باكثير.

فالصفة الأولى عند الباشا هي أن الأدب الإسلامي (غائي هادف) وهذا يتفق مع عنوان وموضوع محاضرة باكثير الذي يرى أن يستخدم الأديب العربي (المسلم) الأدب سلاحاً في المعركة التي تخوضها أمته اليوم، يقول باكثير[1]:

"أن يعي دوره في المعركة فلا يبدد مواهبه فيما لا يجدي على المعركة شيئاً بله ما يعطلها أويعوقها، كاختيار الموضوعات المثبطة للهمم والموهنة للعزائم، أو انتحال البدع الأدبية المنحرفة التي هي في بلادها نتاج اليأس الشائع هناك والانحلال والتمزق والضياع. فليس لنا أن نستنبتها عندنا مجاراة لتلك البلاد".

فباكثير إذن يؤمن بغائية الأدب ولا يؤمن بمقولة (الفن للفن)، وقد رأينا كيف دعا إلى أن يكون الأديب (داعية) يتحمس لفكرة ويدافع عنها.

الصفة الثانية عند الباشا هي أنه (أدب ملتزم) وشرح ذلك بقوله[1]: "هو مسؤولية وريادة في وقت معاً؛ فالمسؤولية إنما هي أمام الله (...) والريادة إنما هي إخلاص التوجيه لعامة المسلمين وخاصتهم". وهذه المسؤولية والريادة هي التي أشار إليها باكثير بقوله[2]:

[1]- باكثير، علي أحمد: دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية، مرجع سابق، ص 11

"أن يكون رائداً لأمته يبصرها بالأخطار التي تتهددها قبل وقوعها، لتتقيها أو تستعد لدفعها، حتى إذا وقع المحذور توجهت بكليتها لمقاومته ومدافعته والخلاص منه".

الصفة الثالثة عند الباشا هي (أنه أدب أصيل) و"تتجلى هذه الأصالة في انصباب أدب الأديب على الأصيل من خصائص أمته، والنقي الصافي من صفاتها، والرفيع الثمين من قيمها ومزاياها"[3]. وهذا يلتقي مع قول باكثير[4]:

"أن يتحلى بصفة تعلو على الصفات كلها وتفوقها في الخطر والأهمية: وأعني الأصالة العربية. والمقصود بالأصالة العربية هنا أن يكون الأديب عربياً في كل شيء وقبل كل شيء، عربياً في شعوره وتفكيره، ونظرته إلى الكون والحياة، عربياً في انتمائه واهتمامه واعتزازه بوطنه وأمته.

عربياً في إيمانه بالحضارة العربية، والحضارات التي قامت في مختلف أقطار وطننا العربي الكبير، واعتبار كل أولئك حلقات في سلسلة ذهبية واحدة.

عربياً في إيمانه بالله وبالقيم الروحية السماوية، وبالمثل العليا، وبالمبادئ الخلقية الرفيعة، إذ هذه من سمات أمتنا العربية ومميزاتها ومقوماتها منذ كانت".

وإذا استبدلنا بلفظة (العربي) في نص باكثير السابق لفظة (المسلم) أو (الإسلامي) فسنجد أن الصفات التي يقصدها باكثير هي نفسها التي عناها الدكتور الباشا. فباكثير يمزج بين العروبة والإسلام مزجاً قوياً، بحيث لا يمكن الفصل بينهما، فقد كان يرى أن العروبة وعاء الإسلام والإسلام روح العروبة[5].

أما الصفة الرابعة عند الباشا وهي (تآزر الشكل والمضمون)، فقد أشرنا إلى قول باكثير[6]:

"ينبغي لمثل هذا الكاتب المسرحي ألا ينسى وهو يلتهب حماسة للدعوة التي يدعو إليها أن المسرحية عمل فني قبل كل شيء فيجب ألا يجور على فنيتها بحال من الأحوال. بل ينبغي أن يحرص الحرص كله على سلامة عمله من الوجهة الفنية، وأن يدرك أن ذلك هو السبب الوحيد لجعل الرسالة التي ينطوي عليها بليغة التأثير في الجمهور الذي يشاهده".

والصفة الخامسة عند الباشا هي (الاستقلال)، ويقصد بها أن "يتخلص الأدباء الإسلاميون بعامة والشباب منهم بخاصة من تأثير الأدباء والنقاد المشهورين الذين يجذبون إليهم من دونهم جذباً شديداً، ويتحكمون في رؤيتهم للأشياء ونظرتهم إلى الحياة والكون ومبدعهما نظرة تجافي الإسلام"[7].

---

[1]- الباشا، عبد الرحمن رأفت: نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، مرجع سابق، ص 145

[2]- باكثير، علي أحمد: دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية، مرجع سابق، ص 11

[3]- الباشا، عبد الرحمن رأفت: نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، مرجع سابق، ص 146

[4]- باكثير، علي أحمد: دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية، مرجع سابق، ص 12

[5]- السومحي، أحمد عبد الله: علي أحمد باكثير، حياته، شعره الوطني والإسلامي، النادي الأدبي، جدة، 1403هـ/ 1982م، ص 92

[6]- باكثير، علي أحمد: فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، مطبعة مصر، د.ت، ص 36

[7]- الباشا، عبد الرحمن رأفت: نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، مرجع سابق، ص 146

وهذا أيضاً يلتقي مع مفهوم (الأصالة) عند باكثير التي أشرنا إليها منذ قليل؛ كما يلتقي مع مفهوم (الاستقلال) الذي يفسره باكثير بقوله[1]:

"أن يعتز بكرامته واستقلال رأيه فلا يبيعهما بأي ثمن مهما يكن سلطانه، إلا أن يرى وجه الحق فيرجع إليه، فإن الرجوع إلى الحق فضيلة".

أما الصفة السادسة والأخيرة عند الباشا فهي أنه (أدب فعال مؤثر)، وهذه أيضاً أكد عليها باكثير حين أشار إلى أن يحرص الأديب على سلامة عمله من الوجهة الفنية، لأن هذا هو الذي يجعل الرسالة التي تنطوي عليها بليغة التأثير في الجمهور الذي يشاهد العمل الأدبي أو يقرأه.

الخاتمة

لم أجد فيما اطلعت عليه من أعمال العلامة الندوي رحمه الله تعريفاً للأدب الإسلامي أو دعوة مباشرة إليه، وبقراءة متأنية لبحثه الذي يعده الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا أول دعوة لإقامة مذهب إسلامي في الأدب يتضح أن العلامة الندوي يفرق بين نوعين من الأدب أسماهما: الأدب الطبيعي والأدب المصنوع. ويكاد تعريفه للأدب الطبيعي يقترب من مفهوم الأدب الإسلامي اليوم مع تركيز العلامة الندوي على تلقائية هذا الأدب وصدوره عن عقيدة صادقة ونفس مؤمنة. ويتفق هذا الفهم مع مفهوم الأدب لدى الأديب علي أحمد باكثير الذي بدأ حياته الأدبية مقلداً للأدب المصنوع، ثم انتهى به المطاف إلى الأدب الطبيعي –حسب تسمية العلامة الندوي– حيث صدر عن عاطفة صادقة وحماسة لدعوة كان باكثير قد نذر نفسه لها ودعا غيره من الأدباء العرب والمسلمين إلى الاهتمام بها وهي أن يتخذ الأدب سلاحاً في المعركة التي تخوضها الأمة العربية والإسلامية اليوم ضد الاستعمار والصهيونية. وبقراءة متأنية لمحاضرة باكثير التي حدد فيها الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الأديب العربي اليوم، نجد كثيراً من التطابق بينها وبين خصائص الأدب الإسلامي كما حددها الدكتور الباشا.

ونخلص من هذا إلى أن مفهوم باكثير لرسالة الأديب العربي/المسلم يتفق مع مفهوم الأدب الطبيعي لدى العلامة الندوي ويكاد يتطابق مع مفهوم الأدب الإسلامي حسب تعريفنا له اليوم.

[1]- باكثير، علي أحمد: فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، مطبعة مصر، د.ت، ص 36

المراجع:

أولاً: الكتب:

- الباشا، عبد الرحمن رأفت: نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، دار الأدب الإسلامي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 5، 1425هـ/2004م.
- بافضل، محمد بن عوض: صلة الأهل، بتدوين ما تفرق من مناقب بني فضل، د. ن، 1420هـ/ 1999م.
- باكثير، علي أحمد:
  - ديوان أزهار الربى في شعر الصبا، تحقيق وتقديم: محمد أبوبكر حميد، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، بيروت، 1408هـ/1987م.
  - فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، مطبعة مصر، القاهرة، د.ت.
  - وا إسلاماه، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د. ت.
- السومحي، أحمد عبد الله: علي أحمد باكثير، حياته، شعره الوطني والإسلامي، النادي الأدبي، جدة، 1403هـ/ 1982م.
- الغوري، سيد عبد الماجد: العلامة أبو الحسن الندوي رائداً للأدب الإسلامي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1430هـ/2009م.
- الندوي، أبو الحسن علي الحسني:
  - مختارات من أدب العرب، قسم النثر، الجزء الأول، دار الشروق، جدة، ط 3، 1406هـ/1986م.
  - نظرات في الأدب، دار القلم، دمشق، 1408هـ/1988م.

ثانياً: الدوريات:

- باكثير، علي أحمد:
  - أمس، مجلة أبولو، القاهرة، العدد (4)، المجلد (3)، ديسمبر 1934م.
  - دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية، مجلة الآداب، بيروت، العدد (5)، أيار (مايو) 1969م.
  - ملاحظات سائح في ديوان ابن زيدون، مجلة المعرفة، القاهرة، عدد ديسمبر 1932م.
  - الموازنة، مجلة التهذيب، سيئون، 1349هـ.

ثالثا: المواقع الإلكترونية:

- موقع رابطة الأدب الإسلامي العالمية: http://www.adabislami.org